



(1)

كانت الطائرة تهبط بنا تدريجياً سماء دمشق.. و كنت منصراً بكل حواسٍ لمتابعة المنظر الذي تطل عليه النافذة.. لا أدرك منه سوى ما يمنحه النظر الكليل.. هذه الأرض المباركة.. فكحل عينك أيها العاشق.. يحتضنها من الشمال الجبل الأشم قاسيون.. وعلى جانبيها جنتان.. أرض درج عليها الأنبياء.. وسرى بليلها الضياء.. وكان بها عز الإسلام.. ومدفن العظام العظام.. تكاد تجد تحت كل صخرة أثراً من ذكرى.. وحكاية من غرام..

لم يبلغ بي الشوق لزيارة أرضٍ كما فعل بي مع الشام.. ولم أرو منها نظري بعد.. وقد كررت زيارتها مراتٍ ومرات.. أعلنا من غرفة القيادة: مرحباً بكم في مطار دمشق.. وقد وفوا لدمشق فلما يخطفوا اسم المطار ل الكبير ولا صغير.. والمكان قداسةً وذكرى لا يحسن أن تنتهكها أسماء الذوات..

(2)

كان بي شوقٌ لرؤية القلعة التي سُجن بها شيخ الإسلام.. وزيارة مرابع الحنابلة الكرام.. والصلاة بالجامع الأموي.. والتبعض من سوق الحميدية.. ورشق قطراتٍ من بردي.. وال الوقوف على قاسيون.. كان صوت ابن تيمية الحراني يسري في خلدي وهو يُقرّ أنه قد جاء في فضل الشام وأهله أحاديث صحيحة.. ولا ريب أن ظهور الإسلام وأعوانه فيه بالقلب واليد واللسان أقوى منه في غيره.. وفيه من ظهور الإيمان وقمع الكفر والنفاق ما لا يوجد في غيره".

وكان على الطنطاوي يتسامى في بيان عجيب: "دمشق.. وهل توصف دمشق.. هل تتصور الجنّة لمن لم يرها.. كيف أصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود.. من يكتب عنها وهي من جنات الخلد الباقيه.. بقلم من أقلام الأرض فان..

دمشق التي تعانقها الغوطة.. الأم الرؤوم الساحرة أبداً.. تصعي إلى مناجاة السوافي الهائمة في مرابع الفتنة وقهقهة الجداول المنتشية من رحيم بردى.. الراكبنة دائمًا نحو مطلع الشمس..".

وكان نزار بن توفيق يُنشد في حزنٍ كبير: "مسقطٌ رأسي في دمشق الشام"

هل واحدٌ من بينكمْ يعرف أينَ الشام؟
هل واحدٌ من بينكمْ أدمَن سكُنَ الشام؟
رواه ماءُ الشام
كواه عشق الشام
تأكدوا يا سادتي...

لن تجدوا في كل أأسواق الورود وردةً كالشام
وفي دكاكينِ الحُلَى جميعها.. لؤلؤةً كالشام
لن تجدوا مدينةً حزينة العينين مثل الشام".

وكنْتُ في مقبلِ حياتي حفيأً بثقافَةٍ يأسِرُها فقهُ عالمٍ وجمالُ أديبٍ وإبداعُ شاعر.. لا تؤاخذُ كلَّ طرفٍ بما يريده الآخرون.. ففعلت بي تلك النقولُ الأفاغيلُ.. وشقَّ بي ذلك التكوينُ.. وأدركتُ أنَّ لنفسي من هو الشام زماناً لا يزدادُ إلَّا مدة.. ونظراً لا يرتدُ إلَّا أكثرَ حدة.. وحقائق لا تستطيع وصفَها دقائقُ السطور..

(3)

خرجنا من المطار.. وفاجأتنِي الصورُ التي لم تكن وقتئذ موجودةً ببلدي.. تدعُو بالبقاء للرئيسِ المعظم.. وتهتفُ باسمه المجيد.. وتزعمُ أنه سيكون القائد للأبد.. البنياتُ والطرقات.. الأنفاقُ والجسور.. المدارسُ والدور.. ما الأمر.. سألتُ السائقَ.. فأجابني: صدِّقني يا بُنيَ الصورُ حين تخرج من القلوب تسكنُ الجدران.. لم يكنْ بعد ذلك البيانُ بيان.. حانت مني التفاتةُ للخلف.. وإذا صورة السيد الرئيس على الزجاجة الخلفية لسيارة صاحبنا.. عدت لسؤاله من جديد وأجاب على الفور: لنذكر لعنه في كل حين.. أخذتنا فترةً صمت.. وتلفتنا بكل اتجاه.. ثم قال بعد تنهيدة طويلة: "مغلوبون على أمرنا يا سيدي.. والله مغلوبون".

(4)

لم يستغرق الأمر طويلاً لأتبين حقيقة قول نزار: لن تجدوا مدينة حزينة العينين مثل الشام.. وقد رأيتها بعد طُهر الأمويين ملطخة بأدران البعث.. لا تكاد تقضي لك بها شأنَا إلَّا بدفع رشوة.. يحاصر بها الكباء حريات المساكين.. وبردي يغالبُ سلسلةً من الماء تراه يجري مرة ويختفي مرات.. وبنيات قديمة جدًا ومركبات.. ومظاهر من فوضى وشتات.. ذات يوم وأنا أتجول بسوق الحميدية.. وعلى حين غفلةٍ مني.. خطف صبيٌّ محفظتي.. ولم يكن بها سوى ما يعادلُ ألف ليرة.. أدركته العسكري الذي استنجدت به وبعضُ المارة فأمسكوه.. وحين عادتْ لي قررت مسامحته.. إلَّا أنهم أشعروني بأهمية الأمر.. وطلبو مني التوجه معهم لمخفر الشرطة.. ضاعتْ علي فرصةُ الاستجمام ذاك اليوم.. ولم يزل رئيسُ المخفر - وهو ينفث دخانه باتجاهي - يؤكدُ لي حرصه على أمنِ السائرين.. ويستعرض قدراته في استنطاق السارق الصغير باستخدام عصا كهربائية كانت معه حتى اعترف.. ثم استمرَّ يتحدث بإشارات كثيرة مفهومة وغير مفهومة كلفتي أخيراً حين أدركت مغزاها ألفي ليرة.. وددت أنها كانت بيد الصبيِّ الجائع وليس الشرطيُّ الشبعان.. وقررت بعدها ألا أمنع محفظتي أبداً من يد أي سارقٍ بالشام.. وحزنت حزناً كبيراً.. هربت من حزني ذاك إلى حي الميدان.. وزرتُ العالم النبيل عبد القادر الأرناؤوط أسؤاله عن صحة حديث: ((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم))، فقال لي: "نعم هو حديث صحيح، ولا زال بالشام خير كثير"، وكان فعلاً حين أعدُّ النظر خيرٌ كثير..

(5)

كان منظرُ قاسيون من بعيد يحيي على الزيارة.. وله مغناطيسٌ يجذب إليه الأرواح..
من قاسيون أطلُّ يا وطني... فأرى دمشقَ تعانق السحاب..

تراث وقد ارتفعت في سفحه الأحياء حتى تقاد تبلغ منتصفه.. وهو شامخ كـ"قاسيون" لا تستطيع أن تجد له وصيفاً فتقاربه.. لم يعط الدنيا لمستبد.. أو يضع رأسه لطاغوت.. وقالوا في سبب تسميته أنه قسا على المشركين فلم ينحتوا منه صنمأ.. هو المعلم الأثير هناك.. يُشرف على دمشق وغوطتها.. ويوقفك على صورة متحركة لا تفتر من زحام الأسواق وضجيج المركبات.. ويرحل بك في الذكرى.. لتنعم بمشاهد لا يستطيع وصفها البيان.. فيها وعْظ الأرواح سابق لقرار العيون.. وحديث الهوى متقدم على جميل اللحون.. ومزيج من غرام قديم وذكريات وشجون..

(6)

وحين عرفت عن دمشق الإجمال على ظهر قاسيون.. ذهبت أبحث عن التفاصيل في زواياها.. الصالحة ودمشق القديمة.. والمكتبة الظاهرية وقبور صلاح الدين.. وباب توما.. ومقبرة باب الصغير.. والجامع الأموي وقد كان تحت كل سارية فيه حلقة علم.. والبنيات المعمّرة الهازئة بقصر أعمار الآدميين وغرورهم.. ودروب طويلة تسير فيها القدم فتعجب.. ولا تتعب الروح.. ثم وردت بيت صديقي الشامي ضيفاً لهم أهل ود وضيافة فرأيت عجباً.. الفسحة السماوية في بطن الدار.. لا يسترها سقف.. ينفذ لها الهواء.. وتتوسطها نافورة ماء.. لا تقاد تخطئها البيوت الشامية.. ونقوش معروفة اللون والأشكال تكسو الأرضيات والجلسات.. وفاكهه المشمش أول غرام يعانق في الضيافة شفاهك.. والماء الذي لن تشرب مثله.. حتى لو حملته معك لبلدك.. يفقد عنديته بمغادرة الديار.. وأحاديث ماتعة تغلب فيها طريقة الكلام الفكرة.. ويدهب معها الخيال في سكرة.. ويتخللها كما يقول الشاعر نزار: حزن كبير..

(7)

وفي يوم قائلٍ من أيام آب اللهاب.. خرجت إلى الزبداني.. وصلت إلى نبع بردى.. شربت من عذب مائه حتى ارتويت.. وتجلولت بمركب له مجاديف في بحيرته الصغيرة.. ثم انصرفت إلى مزرعة قريبة تؤجر للراغبين.. جلست في عريش قد هيئوه.. والسواعي الباردة إلى جواري تدل مياه بردى على أشجار الثمار المختلفة.. وأقبلت فتاتان صغيرتان اسم واحدةٍ بينهما ميسون.. تعاملن مع أهلهما في خدمة المزرعة.. وهما المسؤولتان عن واجب الضيافة.. رأيتهما تغسلان الآنية من الساقى.. ثم تسيران إلى تلك الأشجار فتقطفان من ثمارها ما تطوله يداهما الصغيرتان.. حتى استتم لهما سبعة أنواع أو ثمانية.. من أشهها الكمثرى وثلاثة أنواع العنب.. ثم ترشان عليهما ماء بارداً له لون بردى وطعمه.. وتقدمانها لي.. ولا والله ما ذقت شيئاً أشهى أو هكذا يخيل لي.. وكأنني أستعيد رشف بردى في تشكيلاته الجديدة..

وما ذقت طعم الماء إلا استخفني *** إلى بردى وـ"الطفلتين" حنين

(8)

ولم أزل بعد في كل رحلاتي التي وصلت بها سدني بـ(كندا.. والبرازيل بأمريكا..)، لم أزل أجد من أهل الشام علماء وصالحين تفرقوا في الديار.. وتركوا لذة العيش بأوطانهم مطرودين وملحقين.. مُنْيَة الواحِد منهم أن يروي ظماءه من بردى.. أو يغفر جهته بتراب الشام.. وفي كلمات أستاذ الحنين الشامي الزركلي خير مثال عليهم.. وهو يترنم بهذه الأبيات.. يلخص معها آخر أنفاسه على ضفاف النيل:

العين بعد فراقها الوطن *** لا ساكناً ألهفت ولا سكنا
ريانة بالدموع أقلقها *** أن لا تحس كرى ولا وسنا
يا موطننا عبث الزمان به *** من ذا الذي أغوى بك الزمان

عطفوا عليك فأوسعوك أذى *** وهم يُسمون الأذى مننا
وحنوا عليك فجردوا قضبا *** مسنونةً وتقديموا بقنا
يا طائرًا غنى على غصن ** والنيل يسقي ذلك الغصنا
زدني وهج ما شئت من شجني *** إن كنتَ مثلِي تعرفُ الشجنا
أذكرتني بردى وواديه *** ولربّ ذكرى جدت حزنا
وأحبة أسررت من كلفي ** وهواي فيهم لاعجاً كمنا
كم ذا أغالبه ويغلبني *** دمع إذا كفكته هتنا
لي ذكريات في ربوعهم *** هن الحياة تألقاً وسنا
ليت الدين أحبهم علموا ** وهم هنالك ما لقيت هنا

وهكذا كان شأنُ الثلاثةِ الرفاق.. فأمّا ابن تيمية فقد حُبس بالقلعة.. وما كانوا يضطرون أحداً للرحيل.. وبقي قبره عند التكية السليمانية.. يقول الأستاذ زهير أحمد ظاظا: في شتاء عام (1996م): كنت أتجول في دمشق بالقرب من التكية السليمانية فاستوقفني سائح أوروبي يسألني بالعربية: هل يمكن أن تساعدني؟ فقلت له: على الربح والسعنة، وفي ماذا أساعدك؟ فأخرج خريطة الموضع الأثري في مدينة دمشق وقال لي: أنا أبحث عن قبر ابن تيمية وحسب الخريطة يجب أن يكون هنا.. وأشار إلى مكان بالقرب من مشفى الغرباء بجانب كلية طب الأسنان القديمة... ثم زرت قبر ابن تيمية فرأيت شاهدة القبر مكسّرة متناثرة حول القبر ولم يبق منها إلا كلمة (تيمية)، والتقطت مجموعة صور للقبر ومعه قبر تلميذه ابن كثير..!..هـ... وأمّا الطنطاوي فقد كتب الله له بمقدمة العدل مكاناً.. غريباً هناك إلى جوار الكعبة في البلد الحرام قضى وهو يقول: "حرم الله الجنة من حرمني رؤية قاسيون".

وأمّا نزار فقد فاضت روحه بعيداً طريراً.. ثم حنوا على جسده.. فقبلوا دفنه إلى جوار والده تحت شجرة زيتون بالشام..
(9)

هذه هي الشام.. بستانُ الروح.. والغُفرُ بها للمادح لا الممدوح.. نغار من الطيور التي تحوم سماءها.. لا يُطلب منها تقديم ولا
ولا اصطناع ود.. ونفتاحُ من الأيدي التي لم تزل تهدم من مجدها صرحاً لا تسترد.. ونؤمل في صباح يطوي الليل الخانق..
وتتنفسُ له الأزهار.. وتشرق به شمس الهناء والخلاص..

ويا ساكني الشام كلها.. من حلب المتنبي وحمص ابن الوليد.. إلى اللاذقية وحمادة النواعير.. ومن أدروعات إلى جسرِ
الشغور.. استلهموا مجدكم من تلك الزوايا.. وخذلوا عزماً من تلك الطرقات.. وجذلوا في سبيل تطردون بها الأسد.. وذوي
الأنياب حوله.. وتهون حكم الغاب.. واغسلوا عن دمشق -أرجوكم- قدّى علق بثيابها.. وامسحوا غباراً استطال على لمتها..
واكتبوا لكم في سفر الخلود ثورة.. يترحم لها القادمون على شهدائهم.. ويكتبون بها مسعاكم.. وتضج لها مساجد الدنيا
بالتكبير.. ثورة يبردُ لها رفات الأموات في أرضكم.. وتعودُ من أجلها الطيور المهاجرة.. وتطلبون بها الثأر من ظلمكم..
ثورة تبترون بها اليد التي تسهم في تضييق أرضاكم لتبعلوها.. وتطعون بها الوتين الذي يتاجرُ بعداء إسرائيل وهو لم ينالها
برصاصه.. أراضيكم كلها شام.. وما لرقاء من أرض الله فخرٌ أثيلٌ بمجده الإسلام كفخركم.. رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- زار أرضكم.. وما زار العراق ولا مصر ولا اليمن.. ولكن في قلوب العالمين مقامٌ عليٌّ ومؤمن.. وكثير من الصحابة
دخلوا الشام منهم: أبو عبيدة، وسعيد بن زيد، ومؤذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلال، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء،
وعبادة بن الصامت، وسيف الله: خالد بن الوليد، وابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: الفضل بن عباس.. قال

الوليد بن مسلم: "دخلت الشام عشرة آلاف عينٍ رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -" ، ومئات الكتب التي نقرأها ابتدأت سطورها في دواوينكم.. الطبراني وابن عساكر.. وابن الصلاح والذهبي.. والنwoي وابن كثير.. وابن رجب وابن القيم.. والمزي وابن قدامة.. وسواءهم كثير.. درسوا بخلفاتكم.. وكتبوا بمدادكم.. وتنفسوا هواكم.. ولو لا دمشق ما كانوا وما كانت الأندلس.. ولا زهت ببني العباس ببغداد.. ولا كانت فتوح الإسلام العظام..

(10)

وفي ارتباط أرض الشام بالحرية وبعث العزم، يقول العالم ابن تيمية: "بت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنّة وأثار العلماء.. وهي أحد ما اعتمدته في تحضيري المسلمين على غزو التتار.. وأمرني لهم بلزم دمشق.. ونهي لهم عن الفرار". والطنطاويُّ الخبير بها وأهلها يقول: "أهل الشام كالماء.. لهم في الرضا رقته وسيلانه.. وفي الغضب شدته وطفيانه.. بل ربما كان لهم من البركان فورانه وثورانه".

ونزار القباني يفخرُ بدمشقَ وهو لا ينفكَ عن حزنهِ فيقول:

يا دمشقُ البسيِّي دموعي سواراً *** وتمنيْ فكلُّ شيءٍ يهونُ
وضعي طرحة العروس لأجي *** إنَّ مهرَ المُناضلات ثمينُ
رضيَ اللهُ والرسولُ عن الشام *** فنصرُ آتٍ وفتحٌ مبينُ
استردت أيامها بكِ بدرٌ *** واستعادت شبابها حطينُ
بكِ عزَّتْ قريشُ بعد هوان *** وتلاقتْ قبائلُ وبطونُ
صدقَ السيفُ وعدُّه يا بلادي *** فالسياساتُ كلُّها أفيونُ
صدق السيفُ حاكماً وحكيناً *** وحدَ السيفُ يا دمشقُ اليقينُ
علمنا فقه العروبة يا شام *** فأنتِ البيان والتبيينُ
علمنا الأفعالَ قد ذبحتنا *** أحرفُ الجرِّ والكلام العجینُ
علمنا قراءة البرق والرعد *** فنصفُ اللغاتِ وحلَّ وطينُ
أوقدى النار فالحديث طويل *** وتطويلِ لمن نحبُّ الحنينُ
واركبي الشمس يا دمشق حساناً *** ولـك الله حارس وأمين

ومرت الأيام.. ومضى الرفاقُ الثلاثة.. وبقيت الشام.. تنقل صورها الشاشاتُ.. وتتابع ثورتها الأقلام.. وعشاقُ بعيدون هناك في كل أنحاء العالم يرددون صدى الصوت الذي ينادي برفع الظلم.. ويحرّكون أقدامهم في دروب الحرية.. يعتقدون أن ليس ثمّ بلد أولى بالثورة من بلادهم.. ويمدون أيديهم نحو السماء يصيحون: يا رب.. يا رب.. وطعمهم ثمار الشام.. ومشربهم مياه الشام.. وملبسهم غرام الشام.. وغذوا بالشام.. فعسى أن يستجاب لهم..

المصدر: لجينيات

المصادر: